محمد علي شمس الدين

# الموت على رصيف بارد

— ١ —

كان الفجر في ساعاته الضبابية الاولى ، حين وجد كانسو القمامة في حي « مسك » من بيروت الغربية ، الاستاذ « ميم » نائما على رصيف بارد ، وحين حاولوا ايقاظه ، وجدوا ان نومه كان طويلا .

— ٢ —

— . . . . . . . .

— : أشرد أحيانا يا دكتور .

— حاول أن ......

— : احاول ان أضبط حدود هذه المخيلة اللعينة . لكن الافكار تتناسل دون انقطاع ، وتفور كجب النمل ، تتدافع وأحس كأنها تنبع من قدميّ — تأخذ شكل دم حار يتجمع في أطرافي السفلى — يصعد — يجرف الركبتين — يصعد — ينعقد في القلب غمامة سوداء — يصعد — يملأ العينين ويحجب عني الرؤية — أنا الآن أعمى — أعمى حقيقي — أستطيع أن أطلب عكازا .

— ٣ —

— حاول ان تركز قليلا — هل تنام بانتظام ؟ — حاول ان تركز قليلا — هل تنام بانتظام ؟ — حاول ان تركز قليلا — هل تنام بانتظام ؟ — حاول أن — تر — كز — أنت — الآن — .

— ٤ —

أنا الآن متوازن . متوازن كطفل . متوازن جدا لدرجة الانعدام . اسمعي : سميتك ليلى ، واسمك دافيء بارد كالليل . حين أدخن هذه اللفافة ، أحسب ان الدائرة الخضراء المشتعلة فيها ، تتسع في حدقتيك وتأخذ شكلا مضيئا ، مظلما كشتلة التبغ في مساء جنوبي بعيد .

— ولكنك تدخن كثيرا ؟

— هيا ، فقد آن وقت القطاف .

— ٥ —

حين انحدروا في الليل كقطيع الذئاب ، واجتازوا الحدود الجنوبية ، كانت القرى تنام على بركة الله .

ها هي الحاميات القليلة ، تنسحب أمامهم ، مخلية مواقعها دون مقاومة ، فتسقط القرى الآمنة ، الواحدة تلو الاخرى ، مذعورة مفجوعة .

كان الراديو يذيع البلاغات العسكرية الصامدة ، وأناشيد الانتصار الحماسية ، لكن القرى كانت تسقط وتسقط .

أطفأنا الانوار . وبينما كنت أرتجف في زاوية مظلمة من زوايا البيت ، كان أبي يقرأ دعاء حارا ، وأمي تصلي بضراعة . ها هي دباباتهم تدخل مشارف القرية وأصوات مجنزراتها ترجّ الجدران .

يخفت صوت الدعاء . يخرس بكاء الاطفال والنساء . ويبتلع الرجال ألسنتهم .

دبابة تتجه نحو البيوت . فجأة ، يخرج شبح في الظلام .

— قف .

( ليلى لا تقف )

— قف .

( ليلى تتعثر في مشيتها — تقع — تترنح تحت المجنزرة ) .

ويلف القرية رعب وطني هادىء .

اسمعي : سميتك ليلى — واسمك دافيء — بارد كالليل ، لكن الليل يسقط — وها هو الدم القزير الحار يصعد — يصعد — يصعد .

— ٦ —

بيروت عجوز مبهمة . يتسع قلبها للسر ويقتله . كنت أنتظر سيارة تاكسي تقلني الى مقر عملي ، حين وقف بجانبي ماسح أحذية ثرثار ، أخذ ينادي ( بويا ، بويا ) وينظر اليّ بانحراف ، كأنه يدعوني لامسح حذائي .

قذفت اليه برجلي ، فتلقفها ، وحين آنس مني شيئا من الالفة ، تنهد وقال ، دون ان ينظر اليّ :

— تعرف يا أستاذ ، هيه ، كل شيء غال في هذا البلد ، الا أسعارنا .

( ففزت الى ذهني فجأة : الانسان اكبر رأسمال ... ) .

فضحكت .

استطرد دون ان ينتظر مني جوابا :

— يقولون ، اليوم فيه مظاهرة عشان الجنوب ، والله جاي عبالي امشي فيها ، بس ، شو بتنفع المظاهرات — يا أستاذ — بيقولوا الدولة بدها تمشي فيها كمان .

( ضحكت مرة ثانية ) .

وحين استطرد وقال : الدولة ما بدها تحمي الجنوب . الجنوب الو الله — ( لم أستطع ان اكتم ضحكي مرة ثالثة . لكنه كان هذه المرة ، ضحكا مرا وشرسا وفاحلا ) .

— ٧ —

كانت الجماهير تتدافع في الشارع صاخبة كالثور ، وكانت هتافاتها تتبخر بين ذؤابات الابنية ، او تترسب في فجوات الارصفة ، والشعارات المرفوعة تطفو كالفقاعات على صفحة الماء .

قال صديقي ( الذي كان يزعجني فيه ، حبه الدائم لتحليل الظواهر الاجتماعية ، وربط الاسباب بالنتائج ، بمنطق مثقف ) — قال وهو يتابع الجماهير المتدافعة كالسيل :

— هذه اكبر تظاهرة أشاهدها في حياتي . لا بد ان النقمة الشعبية ، ومصدرها التفاوت الطبقي ، والشعور بعدم الحماية ، هي التي تفجر هذه الكتل البشرية .

قاطعته فجأة ، ودون أن أتابع ما يقول :

— هل تبصر نعش ليلى ؟

قال متعجبا : نعش — ليلى — ؟؟

قلت له متابعا : ألا تبصرها هناك ... محمولة على الاكف ، نعشها مزخرف ، وهي فيه مجلوة كعروس ، وتتداولها الايدي والرؤوس ؟

قال ضاحكا ، وكأنه بدأ يشك في توازني : — ومن هي ليلى ؟

قلت له : — أنت لا تفهم .

فأطرق قليلا ، جمّع أعضاءه . وانسلّ بطيئا في الشارع .

— ٨ —

حين وجد المارة في فجر اليوم التالي ، السيد « ميم » نائما على رصيف بارد ، حاولوا ايقاظه ، لكن نومه كان طويلا ، وكان الدم القزير الحار يتجمع في قدميه ، ويصعد نحو القلب .

( لبنان — الجنوب )